

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

بين الحب والإعجاب - شبهة لغوية - غناء وغناء

بين الحب والإعجاب

الصلة بين الكاتب والقارى منوعة الألوان ، فهناك كاتب يحبه القارى ، وكاتب يعجب به القارى ، وكاتب يظفر بالحب والإعجاب

وسمرد الأمر إلى ذاتية الكاتب ، فإن كان أدبه أدب وجدان فهو جدير بالحب ، وإن كان أدبه أدب ذكاء فهو خليق بالإعجاب ، وإن جمع بين الوجدان والذكاء فهو الكاتب للشود ، وهو الذاتية الكاملة فيما يرى أصحاب الأذواق وأرباب العقول والظاهر أن الأدب الحق يأخذ زاده من الذكاء ومن الوجدان ، فإن خلا من أحدهما الزاد فهو عرضة للضعف ، وإن خلا منهما معاً فهو إلى فناء

وقد يظن بعض الناس أن الذكاء والوجدان من الواهب الثوابت ، وأن من حق الموهوبين أن يتكلموا حين يريدون . وهذا توهم ، فما يستطيع أعظم عقل أو أكبر قلب أن يجود بالمعاني في كل وقت ، وإنما هي بوارق تصدر عن العقل والقلب من حين إلى آحين

ومع هذا فمن المؤكد عندى أن العقول تراض وأن القلوب تراض ، ولكن كيف ؟

هنالك أغذية لا يعرفها مؤتمر الأغذية ، وهى التأملات فى دقائق الفروق بين الحيوانات الحسية والمعنوية ، وهى فروق لطاف لا يدركها غير قلب الأدب وعقل الفيلسوف

والظاهر أيضاً أنه لا بد من التزود بما سميته « الحاسة الفنية » وهى حاسة لا توهب لجميع الناس ، وإنما يختص الله بها من يشاء ، وإلا فكيف جاز أن يكون النوايغ فى كل أمة آحاداً وإن زاد أبناؤها على عشرات الملايين ؟

إن الوجود كتاب مفتوح ، ولكنه لا يُقرأ بسهولة ، ولا يحتمل أسراراً غير أفراد ، فكيف نصل إلى كبايه المكنون ؟ اعتقد أن مسئوليتنا نحو أنفسنا خطيرة ، فنحن نصنع

فرص التأمل ، ونحن نهيب ما يُغضب المجتمع ، ونحن نجعل السلامة شارة النصر المبين

الأصل فى الأدب أن يكون ثورة عقلية وذوقية ، والأصل فى طبيعة الأدب أن تكون قوة موجية ، قوة تُعطى وتُمنح ، ومنها تصدر أقباس الفكر والأوان الخيال

وليس معنى هذا أن يعيش الأدب عيش المحادة للمجتمع ، فالمحادة المقصودة عناد بغيض ، ولكن معناه أن يستقل الأدب عن الموحيات الخارجية ، موحيات الظروف ، بصورة تجعل أدبه من وحي الخلود

ويظن ناس أن الكاتب المحبوب هو الذى يحدث قراءه عما بالقلوب ، وهذا خطأ فى خطأ ، وإنما الكاتب المحبوب هو الذى يضى بقرائه إلى شعاب من الفكر والروح والوجدان لا يصلون إليها بغير دليل . فن غفلة بعض الكتّاب أن يأنسوا إلى العمامة الفكرية ، عمامة الرأى البذول بغير حساب على اختلاف عهود التاريخ . وما قيمة الكاتب إن لم يُشعر القارى بأنه هداه إلى أفق جديد من آفاق العقل والروح ، ولو بلمحة سائحة فى أثناء الحديث ؟

يجب أن تكون للكاتب ذاتية عقلية وروحية ، عساه يخلق فى القارى وجداناً يحس به حقائق الوجود . فليس بكاتب ولا مفكر من يكون محموله نقاسة من أضاير زهد فيها المنكبات

والأدب عند كل أمة وفى كل عهد سموت وعلاء ، أو هو التعبير الصحيح عن الطامع الكريمة فى السمو والعلاء ، ولهذا كان من أساسه الأصلية أن يكون طريف الفكرة جميل الأسلوب وليس المراد من طرافة الفكرة أن تكون رأياً لم يسمع بمثله الناس ، لا ، وإنما المراد أن يكون تمبير الكاتب عنها تمبيراً ذاتياً يحملها من الطريف ، بحيث لو تحدث عنها غيره لعدت من الحديث المعاد

أما جمال الأسلوب فله عندى مقياس يخالف المروف من المقاييس ، والكاتب صاحب الأسلوب فى نظرى هو الكاتب الذى يشترك بنفسك حين يوجه إليك الحديث ، ومعنى هذا أن تبرز الفكرة بصورة قهارة ينسى فيها القارى أنه فى محبة كاتب ، ولا يدرك إلا أنه يواجه معضلات يترك فيها العقل والوجدان . وهذه البراعة لا تنفق للكاتب ولا تنصاع إليه .

والبوقه هي اللفظة الاصطلاحية في موسيقا الجيش العربي ، كما تشهد نصوص رأيتها في بعض كتب التاريخ

وهنا أسوق فائدة لأذكر أني رأيت من نبه إليها في كتب الصرف ، وهي جمل التأنيث من صور التصغير ، فالبوقه أصغر من البوق ، والطفلة أصغر من الطبل ، والبحرة أصغر من البحر ، وقد بولغ في تصغيرها فصارت بحيرة

و « طونس » الساقية في عرف أهل الريف له صلة بسمونها « الفرخ » إن كانت طويلة ، وبسمونها « الفرخة » إن كانت قصيرة وفي شوارع القاهرة نجد بائناً يتغنى :

« حَبِّ العَرَبِ الرُّبْعَةُ بقرش »

فا الرُّبْعَةُ ؟ هي مصغرُ الرُّبْعِ ، بلا جدال

إن الصفة البيضاوية في النقد اللغوي أضرت باللغة وأذنتها أعنف الإيذاء ، فقد كتب كاتب في الرسالة ينقد استعمال كلمة « مَرِير » بمعنى مُر ، وحجته أن المرير هو الحبل المحكم القتل ، ثم اتفق أن رأيت الشريف الرضي يستعمل كلمة المرير ويريد بها المر ، فنظرت في أساس البلاغة فوجدت الرغشري نص عليها بوضوح لا يحتمل الخلاف

وأنكر قوم جمع صناعة على صنائع ، وألحوا إلى أن حلوا وزارة المعارف على تغيير اسم مدرسة الصنائع ، مع أن لهذا الجمع شواهد تفوق المد ، وعلى أقلام كبار البلغاء

وأنكروا أن تنسب إلى الطبيعة فتقول طبعي ، مع أن العرب لم يقولوا طبعي ، ومع أن « فَعَلَى » في « فَعِيلَة » هو في ذاته شذوذ والجرائد تقول « القتل » وهي تريد القتيلة ، لأن قاتلاً قال بأن « فَعِيل » يستوي فيه التذكير والتأنيث ، وهذا خطأ ، إذا كان فعيل بمعنى مفعول ، وهل أخطأ صاحب لساب العرب حين قال : رجل ذفين وامرأة ذفينة ؟

ولم يفهم النحويون علة التذكير في آية « إن رحمة الله قريب من المحسنين » فعده تذكيراً أوجبته المجاورة ونسوا أن « قريب » في معنى الفاعل لا معنى المفعول

والمراد من الصفة البيضاوية في النقد اللغوي هو أن يحكي بعض الناس ما يقرأون حكاية البيضاوات . فأكثر ما نرى من اعتراض هو ألفاظ منقولة عن ناس تعرضوا للنقد اللغوي بلا بصيرة ولا يقين

لغة العرب لغة آباءنا وأجدادنا ، فليعرف من لم يكن يعرف

إلا بعد أن يكون إماماً في لغته ، إمامة صحيحة كونها الرياضات الطوال على الأداء المبين بالأسلوب الرشيق

شبهة لغوية

هي شبهة من يترهون أن اللفظة الفصيحة هي اللفظة المخدرة ويريدون بها اللفظة التي لا يعرفها سواد الناس ، فالكاتب العظيم في نظر هؤلاء هو الكاتب الذي يتجامى المأنوس من الألفاظ ، ويؤثر الألفاظ التي عاشت في المعاجم بقوة التحنيط وإن حرمت الحياة منذ أزمان

وأنا لا أقيم وزناً لهذا الرأي ، وأضيف أصحابه إلى الجهلاء ، ولا يؤذيني أن يتهموني بالتسامح في اللغة ، كما طاب لأحدم أن يقول ذلك في إحدى المحلات

الألفاظ تتقاتل في سبيل العيش كما يتقاتل الناس ، فينتصر فريق ويهزم فريق ، ثم يحىء الكاتب الحضيف فيمات في اللفظ المنتصر ، ويتقدم الكاتب المخدول فيمات في اللفظ المخدول

كان أحد أعضاء المجمع اللغوي - وهو السيد حسن القاياتي - أنكر على في مقال نشره في جريدة البلاغ منذ سنين أن أستعمل لفظة « يستأهل » بمعنى « يستحق » فكتبت في الرد عليه مقالاً بعنوان : « والله تستأهل يا قلى »

واستعملت مرة كلمة « شاف » بمعنى « رأى » فثار خلق من خلق الله وعدوني من المتسامحين في اللغة ، فسألهم عن « تشوف » وهي كلمة كثيرة الورود في قصائد التشبيب ، ثم أكدت لهم أن العرب في جميع الأقطار يقولون : « شافه » بمعنى « رآه » وقد « شفهم » بمعنى !

أتريدون الحق ؟

الحق أن النقد اللغوي غلبت عليه الصبغة البيضاوية ، وإليك هذا المثال :

قضى علماء البلاغة نحو عشرة قرون وهم يقولون في مؤلفاتهم وفي دروسهم بأن التنبي أخطأ في جمع بوق على بوقات حين قال : فإن بك بعض الناس سيفاً لدولة ففي الناس بوقات لها وطبول وكان العجب كل العجب أن يتحامل علماء البلاغة على

المنبي نحو عشرة قرون ، ولا يجدون من يهديهم إلى الصواب وأثنى على نفسي « للمرة الأولى بمد الدبشيليون » فأقول أني تفردت برفع الظلم الذي عاناه التنبي في تلك القرون ، ولكن كيف ؟ ليست البوقات جمع بوق ، كما توهموا ، وإنما هي جمع بوقه ،

لو مررت تلك اللحظة بالناس في ماضيهم البعيد لظفرت
اللغات بألفاظ وتماير تفوق الوصف ، ولكان من السهل أن
أشرح ما يوحى به ذرع « الرمل » على نهائ الموج في صمت الليل
ثم نفترق ، فنتى نلتقى ، يا روحاً لا يحيا بدونه روى ؟

لوجود كله غناء ، ولنا وحدنا غناء ، وروحك هو غريد
البلبل ، وحفيف النسيم ، وهدير الموج ، وعريضة الكهرياء
ثم نفترق وقد تحيرنا بين النور الأحمر والأزرق ، وهذه إشارة
لا يفهمها غير أسارى هذين النورين في « دار الوجد والمجد » ،
عليها أطيب التسليمات !

فن قاته أن يعرف سر هيامى بوطنى فليقرأ هذه السطور
بروحانية وإخلاص

الإسكندرية هي المثال المصور لسائر النماء ، ومن لم يزد
الإسكندرية فليس من حقه أن يزعم أنه عاش لحظة من زمان
ولى في الإسكندرية دار تشكو جفائى ، ولم أكن من
الجافين ، دار أساورها بلا استئذان حين أريد ، كأنها دار الهوى
في سنترس أو بغداد أو باريس

في الصبح قرأت مقالاً في جريدة الأهرام عن إيطاليا بعد
ثلاث سنين ، وفي الظهر قرأت مقالاً في جريدة الريفورم عن
إيطاليا بعد ثلاث سنين ، فتذكرت أنى عرفت تلك الروح
في اليوم الذى أعلنت فيه إيطاليا الحرب قبل ثلاث سنين
وما أبعد الفرق بين إيطاليا وبينى !

مررت بها موجات هزمتها ، ومرت بي موجات نصرتنى
أنى الحق أننا لم نتعارف إلا قبل ثلاث سنين ؟
أنت يا جندية الشاطئ رفيقة روى منذ أزمان وأجيال ،
وأنت منى من الهوى قبل أن يتنفس صبح الوجود

لا بد للإسكندرية من حبيبين ، فلنكن هذين الحبيبين ،
ولتفرح بنا الإسكندرية فرح الأليف بالآليف
يا مثال الحسن ومثال اللطف ، يا رجانة مطلولة في صباح
من أصبحت آذانا

يا تلك الروح في تلك المدينة ، تذكرى ثم تذكرى ، تذكرى
« سبعة أبجر » في لغة العراق و « سبعة أراذب » في لغة
السودان ، وتذكرى الأبيات التى أملتتها عليك من لغة الفرنسيين .
وللى اللقاء فى شباب الوجدان
نكى مبارك

أن خطانا فيها أفصح من الصواب . وإننا لن نستمع لأى اعتراض
بعد أن ركزنا الزاية فوق ناصية الخلود

غناء وغناء

فى مكان يستبقى إليه ضياء الشمس ، ونور القمر ، وهدير
الأمواج ، وقفت أنتظر وفاء بيمعاد هو اليمعاد
وأقبلت الروح الملائكية فى صمة إنسانية ، كما بطيب للملائكة
أن تشكل بصور الناس فى بعض الأحيان
ودار حديث أعذب من رنين الكؤوس ، وأرق من
وسوسة الحلى ، فى لحظات الصفاء

ثم دار عتاب ككتاب القلوب للميرون ، فإذا قلت وماذا
قلت تلك الروح ، وقد أسنى البحر واستمع الوجود ؟
لو تجمع ما أثار البحر من مواطن على اختلاف الأجيال ،
ولو اعتصرت الحياة ما يجرى فى أعوادها من رحيق الحب ،
لكان هذا وذاك دون ما أضفينا على الكون من بهجة النعيم ...
ولو عينا لأداء الزكاة عن تلك اللحظات لكان من القليل أن
تقضى العمر فى شكران من قضت حكمته أن يجعل الحب سيطرة
روح على روح ، وانجذاب روح إلى روح

كان ضجيج المدينة أضعف من أن يحجب سرار القلوب ،
وكان القمر بفضل عليائه أشرف من أن ينم عن خلوة حبيب
بمحجوب

فى شهر يونية تقوم غمامة تحجب القمر فى لحظة لا تنتظر
ظلال السحاب ، فنفهم أن للحب والشعر آلهة ، كما تقول
أساطير القدماء

كانت الدنيا كلها فى يدى ، وكان هوى هو الهوى ، وزمان
هو الزمان ، وكانت لغة الوجد فوق الأصوات والحروف ، وهل
يعرف أحد ما لغة الأنفاس الحار ؟ وكيف وما كانت اللغات
إلا تماير عما يجوز البسج به من سرائر الأرواح ؟

وأين اللغة التى تمبر عن فرحنا بالحب فى تلك اللحظة
الوجدانية ؟

أين أين ... وهى لحظة ما ظفر يمثلها عاشق فى قديم
ولا حديث ؟

هى زاد العمر كله ، فليتمرد المجر كيف شاء بعد ذلك
الوصال .